

ما زال الكلام في الآية التي ذكر فيها الذكر، ونقف قليلاً عند كلام للفيض الكاشاني في رسالته جلاء القلوب، رسالة مهمة جداً، وتعتبر من الرسائل الأخلاقية المفيدة، يتناول فيها عدة مباحث منها: الذكر، المحبة، فهي الأمور التي ينصح بمطالعتها.

الفيض الكاشاني قسم الذكر المعترف شرعاً إلى أنواع، مع قطع النظر مع ما يمكن أن يقال في الأنواع التي ذكرها من كونها تتداخل مع بعضها البعض أو في صدق الذكر على بعضها، وفي توضيح كلامه ونقل كلامه تنبيه للقلوب النائمة، وهذا ما يحتاج إليه الإنسان في كدحه في هذه الحياة.

النوع الأول: يرجع إلى الذكر اللساني، والذي يكون توأمًا مع حضور القلب. وهذا النوع من الذكر يحصل لكثيرين، فعندما يسبح الإنسان ويهمل ويحمد الله سبحانه وتعالى بلسانه ويشعر بذلك في قلبه، هذا نوع ومرتبة من مراتب الذكر.

فحينئذ هذا الذكر اللساني تبرز آثاره -أيضاً- على الجوارح، وقد ورد في بعض الأخبار تسمية مثل هذا الذكور بالمحسن، ورد في الخبر عن رسول ﷺ: (الْإِحْسَانُ فَقَالَ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ). هذا عبادة الله مصداقها الذكر، واستحضار القلب يرجع إلى كأنك تراه، مع قطع النظر عما يمكن أن يقع فيه هذا الكلام من مناقشة من تطبيق هذه الرواية على هذا النوع من الذكر.

النوع الثاني: لا علاقة له باللسان، وإنما هو ذكر جواني، أن يستحضر الإنسان في قلبه ما أنعم الله عليه به من نعم دنيوية وأخروية.

هذا تماماً كإنسان أحسن إليك، عندما أنسى هذا الإحسان وأغفل عنه، قد لا أتعامل هذا المحسن بما يناسب إحسانه. بخلاف ما لو وضعت في ذهني أن فلان أحسن إليّ، وأكثر من ذلك فقلت لأولادي ومن يهمني أمره أن فلان أحسن إليّ.

اذكر أحد العلماء -توفي قبل عشر سنوات تقريباً- تعجبت من فعله، حيث كان في فاتحة لأحد العلماء الكبار في المسجد الأعظم، فرأيت هذا العالم واقف في أول الصف يتقبل التعازي، ورفض أن يجلس، أي حتى أبناء المتوفى جلسوا وهو ورفض أن يجلس، فتعجبت ما علاقة هذا العالم بالمتوفى، فهذا أردبيلي وذاك شاهرودي، فسألت أحد العلماء الكبار في السن، فقال هذا عندما كانوا في النجف كان هذا الأردبيلي يسبح في الفرات وغرق، ومع مرور الشاهرودي فنزل وأنقذه، فهو يرى في نفسه حق عليه في الحياة.

هذا الإنسان يستذكر هذه النعمة من إنسان عادي، فكيف بتلك النعم التي لا تنقطع عنا، ولا لحظة من اللحظات. الآن أنا أتكلم وأنت تسمع وتأكل وتشرب وتسير في هذه الحياة، كل ذلك هي نعم الله تعالى، حتى إذا حمدته هي نعمة من نعم الله كما يقول الإمام السجاد عليه السلام في بعض مناجاته: (وشكري لك يحتاج إلى شكر) فشكري وحمدي توفيق من الله سبحانه وتعالى، هو أعطاني هذه القدرة على الشكر والحمد، وهذه نعمة ستحتاج إلى شكر وحمد، وبالتعبيرات المنطقية يلزم التسلسل، وما يلزم التسلسل مستحيل، فهذا يعني أنه مهما حمدنا الله سبحانه وتعالى لا نوفيه حقه.

إذاً النوع الثاني من الذكر استحضار النعم، واستحضار النعم ذكر لله سبحانه وتعالى، استحضار النعم ونسبتها إليه تبارك وتعالى، هذا الإحساس وهذا الشعور يصبح الإنسان حياً، ينجل من أن يعصي صاحب هذه النعم.

هذا النوع من الذكر يعطينا العصمة عن الذنوب، بمقدار ما يتطور هذا النوع من الذكر بمقدار ما يجتنب الإنسان الذنوب. عندما يتكلم معك المنعم من البشر، وأنت مستحضر لنعمته، فتعامل معه بطريقة غير ما لو كنت غافلاً عن نعمته.

النوع الثالث: استحضار الطاعة في القلب.

النوع الرابع: استحضار المعصية في القلب.

كل من الثالث والرابع، استحضار الطاعة والمعصية، في الواقع يرجع إلى ما تعبر عنه الروايات بالمحاسبة، فالمحاسبة مرتبة من مراتب الذكر، مرّ عليّ شهر رمضان فهناك طاعة الصيام، كيف أديتها؟ إن كان فيها نقص هل يمكن جبرانه؟ المعصية الفلانية كيف تعاملت معها؟ هذا في الواقع يرجع إلى محاسبة الإنسان لنفسه.

وهذا من الأمور الصعبة، ليس أمراً سهلاً، محاسبة الإنسان لنفسه كما يذكر الشهيد الثاني في كتابه محاسبة النفس، على هذا الإنسان أن يكون مع نفسه في محاسبتها أشد من محاسبة شريكه في التجارة. إذا كنا نضارب مع بعضنا البعض، عندنا جلسة أسبوعية أو شهرية، أين ذهب هذا المال؟ أين هذا الربح؟ وكذا كذا، فادقق في المحاسبة.

لا بد أن أحاسب نفسي حساباً من هذا النوع، بل أشد من هذا الحساب.

فإن كانت الطاعة كاملة فيتحوّل ذلك إلى نعمة، فنرجع إلى المرتبة السابقة، فاستذكر النعمة. وإن كانت طاعة ناقصة لا بد من جبرانها إن كانت قابلة للجبران، وإلا فإن الإحساس بالندم نوع من الذكر.

وهكذا الحال بالنسبة للمعصية، عندما استذكر المعصية وعندما أفكر في الليل ماذا فعلت بجارحة نظري؟ هل نظرت إلى ما حرّم الله النظر إليه؟ وبدأت استحضر ما فعلت، فالإنسان على نفسه بصيرة، فإن عففت بصري فهي نعمة أحمد الله سبحانه وتعالى عليها، وإن تجرأت على ربي فلا بد من التوبة، وبعض الذنوب تكون من قبيل الحقوق لا بد من جبرانها؛ لأن الذنوب المشتركة التي يكون لله سبحانه وتعالى فيها حق وللمخلوق فيها حق هي أصعب من الذنوب التي تكون لله سبحانه وتعالى؛ لأن الله لا يظلم، ويعفو عن ما له، ولكن لا يعفو عما لغيره، فلا بد من مهما أمكن بالطرق المعروفة من الجبران، بأداء الحق أن أمكن، وإذا لم يمكن بالتصدق، وإذا لم يمكن بالاستغفار لصاحب الحق وما شابه ذلك.

أو اتبع السيئة بالحسنة، فإن الحسنة تمحو السيئات.

النوع الخامس: أن يذكر الله سبحانه وتعالى عندما يهيم بأمر، وهذا من أصعب الأمور، هذه النفس الجارحة عندما يعرض عليها أمر كثيراً ما تنسى كل شيء، تنظر إلى هذا الأمر فقط، فتنفذه أو تعرض عنه أو تتخذ موقفاً أو تسكت، كل ذلك له حساب عند الله سبحانه وتعالى، قبل كل موقف وقبل كل

حركة وسكنة، لا بد حينئذ أن اذكر الله، بمعنى أن الله يرضى عن هذا العمل وعن هذا الموقف وعن هذه الحركة وعن هذه السكنة أو لا يرضى.

هذا ما يعبر عنه الإمام الصادق عليه السلام (من أشد ما فرض الله على خلقه ذكر الله كثيراً. ثم قال لا أعني سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر وإن كان منه، ولكن ذكر الله عند ما أحل وحرّم فإن كان طاعة عمل بها وإن كان معصية تركها)<sup>٢</sup>.

فالذي هو أشد أن اذكر الله سبحانه وتعالى قبل أن اتخذ أي موقف من المواقف، لا بد أن نتدرب على ذلك.

عندما سئل الإمام الصادق عليه السلام عن قوله تبارك وتعالى: (عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ - ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ قَالَ أَمَا وَاللَّهِ إِنْ كَانَتْ أَعْمَالُهُمْ أَشَدَّ بَيَاضاً مِنَ الْقَبَاطِيِّ وَلَكِنْ كَانُوا إِذَا عَرَضَ لَهُمُ الْحَرَامُ لَمْ يَدْعُوهُ)<sup>٣</sup>. أي عمل هذا الذي جعل هباءً منثوراً، فلا بد لهذا العمل له قيمة، وإلا إذا لم يكن له قيمة فهو في ذاته هباءً منثوراً، لا يحتاج إلى أن نجعله هباءً منثوراً.

القباطي هو نوع من الثياب البيضاء الرقيقة التي تصنع عند أقباط مصر، ربما تشبه هذا الذي نعبر عنه الدشداشة من الزبدة، بياضها شديد وناعمة.

فعلى الرغم من أن أعمالهم كانت نقية وطاهرة، ولكن في بعض المواقف إذا عرض عليهم الحرام لم يدعوا.

<sup>٢</sup> الكافي (ط - الإسلامية)، ج ٢، ص: ٨٠

<sup>٣</sup> الكافي (ط - الإسلامية)، ج ٢، ص: ٨١